الفصل الأول

نظرات عامَّة للمؤلِّف

١- القواعد التى يتعيَّن للمؤلِّف اتِّباعها

*[ق ١ أ] ....[1] واستنباط الغريب الذى لا يعقله كثيرٌ من الناس؛ فإن ذلك يولد خشونةَ اللفظ ، الذى تمجُّه الأسْماع.

والكلامُ، إذا خرج من القَلْب، وقع فى القَلْب. ولا خَيْر فى رامٍ رَعِش، ولا متكلِّم هائب؛ فإنَّ الهَيْبة فرعٌ [من] المخافة، والمخافة فرعٌ [من] الحذر؛ ومَنْ حذَر فقد عَقْلَه، ومَنْ خاف، تكدَّر عيشُه، ولا تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطق عنها اللسان، ويذكى بها الجَنان؛ فالنفسُ إذا منعت ما تشتهى، تُرَى مختلطة، وتصير كأنَّها بطوارق الخبل مختبطة.

ولا يجب على الناطِق والكاتب أن يتَّبع هواهُ فى أمْره كلِّه: فكلُّ مفتون ملقَّنٌ حُجَّته، ولا عليه أن يرفض ذلك؛ فيكون بانيًا على غيرِ أصْل وعاملًا لغَيْر نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصْلح غيْرَه ويُفسد حالَ نفسه، وهو لا يشعر، بل يصرِف نفسه على فرقَيْن: يسعَى فى بلوغ أمَله وإدراك مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلًا بذكره ولا غرضًا لعدوِّه. وكل بيانٍ ما لم يكن صوابًا، فهذَرٌ.

وليس يُحْمَدُ لواضِعِ كتابٍ أو ناظم خَبَرٍ أكثرَ من جودة التأليف فقط، لأنَّه إنَّما وضع ما قد سبقه إليه غيرُه؛ وكلَّ أحد ينفق ممَّا عنده.

وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئًا. فلو كان نطْقُ الناس إحالةَ بَعْضهم على بَعْض، ما سُمِع أحَدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكر، ولا يتبرَّع فى [شىءٍ]. ولكنَّ الأولَى أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه فى قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[2].

وليست الفائدة فيما قصَدْنا إليه ذِكْرَ خَبَرٍ يوصف ويأتي عليه نادرة مستطرفة، أو حكاية مستغربة، أو معنًى يؤدِّى إلى تأدُّب وانتفاع. فلَعَلَّك – أيُّها المتأمِّل كتابَنا – أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تَجِده منصوصًا هُنا، فتُعْجِز واضِعَه: فليس إلاّ كما قدَّمناه.

اللَّهُمَّ إلاّ أن يكون حديثًا يؤدِّى إلى القيام بحُجَّة صاحبة والاعتذار *[ق ١ ب] عنه من أمْرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة، فنَطَق هَذَارًا، وساعَدَ عليه أقوامًا لم يخسروا فى عرض غيرهم شيئًا، وطعنوا على غائبٍ أو ميِّتٍ لم يُجِر الجواب عن نفسه، أو دليلًا لم ينتصر لعَرْضه.

---

(١) هنا يبتدىء نص المخطوط، إذ تلفت منه الورقة الأولى.

(٢) سورة الزمر الآية ١٨.

obeikandl.com

أو أبـان المؤلِّـف عن نفسـه حِذْقًا ومعرفـةً تُذْكَر عنه وتُنشـر بعده: فإنَّ ذلـك من آكَد مـا يجب له السـعْيُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّـه في تلخيصه، إن أعانـه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء، وأنفةٌ لسـوءِ المقال، ونشاطٌ على ترفيع الذكر، مع فتو الهمة وصبوة القريحة. وإلاَّ، فالأمرُ ناقصٌ منه، والـلسـانُ عيٌّ عنه.

ولا سبيل إلى اجتماع أمرَيْن مختلفَيْن في الإنسان معًا، ولا في غيره من جميع المخلوقات. فإنَّـه، متـى ارتفع أمْرٌ، نـزل ضِدُّهُ: كالحيـاة، إذا ارتفعت، وجب المـوت؛ وإذا ارتفعت الصحَّة، وجب السقم؛ وإذا ارتفع الكرب، وجب الفَرَج.

هكذا نسق كل أمر: كالعامل للآخرة محضًا، لابُدَّ له من نقصان دنياه.

ألَا تَـرَى أنَّ مؤلِّـفَ الكتاب، إن كان غَرَضُه نَظْم الكلام وسَـجْع اللفـظ، كان ذلك ضارًّا بالمعنى؛ وإن أتَى به، فإنَّما يسـوقه بعد تحليق عليه، ورُبَّما وضعه من غير شـكله. وإذا تمَّ المعنَى، نقص بَعْضُ اللفظ؛ كما قيل: «إذا تمَّ العقلُ، نقص الكلام».

وأرَى أنَّ مساقَ الحديث في التأليف بَعْضه لبَعْض أحسنُ خرطًا وأفضلُ نظمًا من تقطيعه. ولهذا نُريدُ إيرادَه كالحديث «[فالحديث] ذو شُجون»، ونضرب المَثَل لبَعْضه ببَعْض: فيتَّفق إيرادُه دَفعةً واحدةً، ونصُّه على أكْمَل ما يمكن.

٢ - حقيقة الإسلام والردُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشـأ فيها، وأدركها ببصره وجميع حواسِّـه، فهو لآخرته أجْهَـل، [آخرتـه] التي لا تُعرف إلَّا بالتفكر والاعتبار، بعد مـا حضَّ عليه الكتاب وأتى به الرسـول- عليه السـلام - وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[1]. وما * [ق ٢ أ] يصلح لنفسه لا يصلح لغيره. وأصْلُ العلم كلِّه معرفة الإنسان بدينه، و[يقينه] بمَعَاده، وأنَّه لم يخلق عبثًا. فإذا صحَّت معرفتُه بذلك، كان أحْرى أن ينتفع به لدنياه التي يشاهِدُها معاينةً.

والرجال ثلاثةٌ: رجلٌ عَلِمَ فعَمِل: فذاك الذي يُدْعَى في الملكوت؛ ورجلٌ عَلِمَ ولم يعْمَل: فـذاك الـذي يُضاعَف له العذاب؛ ورجلٌ لـم يَعْلم ولا عَمِل: فذاك، إن مـات، يموت مِيتةً جاهليَّةً، ولا تصحُّ له معرفة دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعَطِّل. فإذا حَسُن تمييزُه عـن الصنـف المُلْحِد، عرف فَضْلَ ما هو عليه، فاتَّبع على يَقينٍ وجودةِ نَظَرٍ، لاباسـتهزاءٍ ولا تقليـدٍ، فيعجز ويشـك. وأمَّا من كان مـن الأصناف المُلحِدة، غير أهـلِ الكتابَيْن[2] من المُشركين ومن سِواهم، فالضلال منهم بيِّنٌ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش. وأما ما يزعم أهـل الكتاب من أنَّهـم على الحقّ، ولهم الدين القويـم[3]، وأنَّ قولهم أخلُّ [بغيره]، فالردُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم: «إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبِّيكم نبيٌّ ولا سُـنَّةٌ، فلا يكون

---

(١) سورة الرعد الآية ١٩.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) أصل: «القديم».

هذا القياس إلاّ بأن تكفروا بمن كان قبل نبيكم من الأنبياءِ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ وكُتُبٌ مُنزلةٌ وأنبياء عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم، لا ينسخ دينٌ دينًا، لم يجبْ لكم أنتُمْ شيءٌ!»

وإنّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدى مُهْمَلين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]. ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبُّدهم بعضهم لبعض، ما لم يكن في حكمة الله ومشيئته أن يترك المرءُ ودينه، ولا يمهل من يعبد سواه حتى بعث محمّدًا – صلّى الله عليه وسّلم – بالحقّ بشيرًا ونذيرًا؛ فصدع بالقرآن، وجاهد في الرحمن، وسنّ السُّنَن، وأمر بالمعروف، ونهى عن المُنْكَر. وكان في ذلك الزمان قد ضلّ أهلُ الكتاب، واختلفوا، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحّ لفرقة منهم شريعةٌ مع الأخرى؛ وكانوا كم * [ق ٢ ب].....[2] . الله تعالى؛ فختم الله الرسالة بنبيّنا – عليه السلام – ليبيّن له ما فرضه عليهم، ويُظهره على الدين كلّه! إن يقولوا: «ما جاءَنا من بشير ولا نذير!» وقال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]، فالحُجّة عليهم ظاهرة على ما بيّنّاه فيما يعطى العقل والقياس. وأمّا تِبْيان نبوّته – عليه السلام– في الآيات التي جرت على يده، فأكثر من أن توصف.وإذا قتلتَ أحَدَهم ببعض هذه الحُجَج؛ فمن ينتحل منهم فِقهًا في علمه وسدادًا، يرجع إلى أن يقول: «إنّما كان رسولًا إلى العرب!» فتأمّلْ تناقُضَه، وكيف أثبت له الرسالة؛ ومتى وجب إثبات الرسالة، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلّ مقالة وما أتى به. ثُمّ الله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4]. وقال – عليه السلام –: «بُعِثْتُ إلى الأسْوَد والأبْيَض والحُرّ والعَبْد»[5]؛ فهُمْ لا يصحّ لهم الإنكار جملةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ.

٢ - قصور القياس دون عون من الوحى

وقد كانت معرفة البارِئ تعالى بالعقل اضطرارًا لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[6].

ولو تُرِك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلًا، مستضعفين، لا يطيقون نصر ما عُهِدَ إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهى عن المُنْكَر، ولغلب جُهّالَهم وعامّتَهم التظلّمُ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه.

فكانت النعمة ممّا أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرُّسُل، ليكون ما أتوا به دواءً لِمَا في الصدور وهُدًى ورحمةً؛ فمن عرف الله قبل بالعقل، أتم عليه نعمته؛ فقد عرّفه نفسه

(١) سورة فاطر الآية ٢٤.

(٢) خرم نحو سطر في الأصل.

(٣) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٤) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٥) متفق عليه.

(٦) سورة الزخرف الآية ٨٧.

باليقين، وبشَّره بالثواب، وأنذره العقاب، ليرتفع الشكّ ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامّة الناس طوعاً أو كرهًا.

ألا تَـرى أن لا شـىء مـن أُمـور الدنيا يصـحُّ بالظـنِّ دون اليقين؟ فكيـف الآخرة التى لا يوقـن * [ق ٣ أ]......(١) الذيـن أبانـوا عنها، والظنُّ أكْذَب الحديث والشـرع، ومن تقلَّـده بطـل [رأْيه]. وليس حكْـمُ البارئ تعالى ممّا يجرى على قيـاس: كيف؟ وهو خالق القيـاس، وهـو واهب العقل الذى به أدركنا جميع الأشـياء. ألا تَرى أنَّ النفس لم يقف أحدٌ منها على حقيقة ؟ ما هى إلاّ اختلافٌ بين العلماء الشرعيِّين وأهل الطبيعة والدَّهْريَّة. والحقُّ إنما يكون فى طرف واحد؛ فهم يخبطون خَبْطَ عَشْواء وإذا قِسْتَ على الحقّ، فإنما تجده عند أهل السُّنَّة لما بأيديهم من القرآن وحديث الرسول – عليه السلام –، فهم يتكلَّمون على أصل، وغيرُهم على قياس: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾(٢).

وترى من المُلْحِدين كثيراً [مَنْ] لا يؤْمن بالغيب ويقول: «إنّما أعلم ما تُدْرِكه حواسِّـى من حارّ وباردٍ ورطبٍ ويابسٍ، وما أدركتُه بعقلي ممّا كان؛ ولا أعلمُ ما يكون، وإنّما أنا آنُ الآن». فالردُّ عليه أن يقال له: «أتدرى بِمَ عرفتَ هذا كله؟» سيقول: «بالنفس. وعلمتُ النفس بالعقل الذى هو أرفع الدرجات». فنقول له: «إذا عرفتَ بالعقل ما أنتَ فيه، لم يكن لك شئٌ متقدِّم تعرف به العقل، ولا اسـتطعتَ لنفسك، ولا علمتَها قبل؛ فتركت فيها عقلاً وتدبيراً. وواهِبُ العقـل الذى خلقك ودبَّرك كيف شـاءَ، قادرٌ على أن يعيـدك ولا يجعلك هملاً، ولم يخلقك عَبَثًـا! ولـو أنّك تعلم – أيُّها الشـقىّ – أن العقل، إذا جحدتَ به آيـات ربِّك، كَلٌ عليك وحَمْلٌ يوم القيامة؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾(٣). وقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾(٤). وقد أتت الرسُل بالآيات التى هى خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك فى العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البَشَر. وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غابَ عن العقل والقياس؛ ولا يعجز الله فى قدرته على ما يشاء * [ق ٣ ب] جاحِدٌ كافِرٌ.

كقول أهل الطبيعة: إنّها هى تُدَبِّرُ كلَّ شىءٍ، وإنّها أعلم [من] كلِّ عليم وأحكم [من] كلِّ حكيـم؛ فنجع من فعلها فى الأبدان مـا لا تُدركه الأطِبّاءُ باجتهادها. وقال غيرُهم: «الطبيعة اسـمٌ واقعٌ على غير شـىءٍ لا يُدرَى ما هو.» فالحُجَّة عليهم: أهِـىَ طبيعةٌ واحدةٌ، أم طبائعُ كثيرةٌ ؟ بل، سـيقولون: «لكلِّ شـىء طبيعةٌ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدهما إلاهيَّةٌ. وغَيْرُها مُناقِـضٌ لهـا. وهى كانت حُجَّـة إبراهيم على قومه ورَدّه على من قال إنَّ الشـمس هى حياة

(١) خرم نحو نصف سطر فى الأصل.

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٦.

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٦.

(٤) سورة يس الآية ٧٨.

العالم دون غيرها؛ فقال – عليه السلام – : «أرى الظِّلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس؛ والخالقُ لا يُضادُّ!»[1] فأثبت الوحدانيَّة بالحُجَّة القاطعة الواضحة.

وقد ذُكِر عن سُقْراط، وكان في زمن جاهليَّة، أنهَ قال، بما أُوتى من الحكمة، مخاطِباً البارئ عزَّ وجلَّ: «يا أَزَل الأزَل! ويا أوَّل الأوائل! ويا قديمًا! لم يَزَلْ مِنِّى نارُكَ لعِلْمِى أنَّ هذه المخلوقات من آثارك؟» ولم تكن معه فِئَةٌ يتَّبعونه على قوله، ولا يعقلون ما قال، حتى أمروا بقتله.

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَه أنَّ شرعاً لا يتمّ بقياس العلماء وخواصّ الناس دون الرسالة، على أنَّه لا يشكّ ذو عقل أنَّ المخلوقات قد جعلها الله عِلَلاً بَعضها لبَعْض، ولم يخلقها عَبَثًا؛ ولكلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إلى أن ينتهى ذلك إلى البارئ عزَّ وجلَّ؛ فهو الذى لا فوقه شيءُ. وهو قول إفْلاَطُون لموسى– عليه السلام – إذ قال له: «يا أخى؟ رَسولُ مَنْ أنتَ ؟» أراد استخبارَه؛ فقال له موسى: «أنا رسول العِلَّة». فقال له إفلاطون: «ما العِلَّة؟» قال: «لا أدرى! ولو كنتُ أدرى، لكنتُ أنا العِلَّة! إنَّما أنا متَّبع!» فقال له إفلاطون: «اذهبْ وبَلِّغْ ما شَئْتَ! فالآن صحَّ عندى أنَّك رسولُ حَقًّا!» وكذلك الجُزْءُ لا يُحيط بالكُلّ، والكلُّ مُحيطٌ بجميع الأشياء؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[2].

وكذلك *[ق ٤ أ] أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنَّها مخلوقةٌ مصرَّفةٌ لما... العباد؛ والعاقل منهم يقرُّ بذلك، غير أنَّه نُهى عن النظر فيها والاجتهاد فيما نُهى عنه، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة؛ والفسادُ أسرعُ من البنيان، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء. «وَدَعْ ما يرُيبك إلي مالا يُريبُك».

وَهُمْ يقولون إنَّ فيها سعوداً ونحوساً، إنَّما فى الفلك سعدَان ونحسَان، يعنون بها المُشْترى والزُّهَرة وزُحَل والمَرِّيخ، ونَيِّرَان، وهُما الشمس والقمر؛ ولا يصحُّ لعالِم أن يتكلَّم عليها إلاّ بمزج بَعْضِها ببَعْض، فكيف يكون لها الحكمُ؛ وهى أضدادٌ، والحَاكِمُ لا يضادُّ، وخالقُ الخير والشرِّ إليه يرجع الأمر كله؟ وهو مصرِّفُ الدهور بما يشاءُ! لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم!

وليس فى العالم أمرٌ يثبت؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا، وكذلك الدُّوَل والمِلَل: كلٌ يأتى فى أوانه، ولا يتعدَّى وقته؛ والدينُ صلاحُ العالَم، ولا عدْلَ إلاّ به، والمُلْكُ يعضده ويحميه، وهو قوام العالَم على ما رتَّب البارئُ عزَّ وجلَّ.

٤- ضرورة التعليم والتجربة

واُعلَمْ أنَّ العقل محتاجٌ إلى التَعَلُّم، ولا يستحكم تَعَلُّمٌ إلَّا بتَجْربة، ولا تتحكَّم تَجْربَةٌ إلاّ ما كان فيها بعض النكد والإشغاف؛ فالإنسانُ على ما ضرى عليه وعلى أنّ السعيد مَن اتَّعَظ بغيره؛ لكن من شأن الإنسان التسويف و «لَعَلَّ» و «عَسَى»؛ فإذا اُحْتِيجَ فى ذاته، أعقبه ذلك يقظةً وحنكةً. وكذلك من أَحْوَجَ إلى نفسه كأَنَّما لا يتَّكل على غيره.

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

فينبغى للعاقل أن يعمل نفسه فى رياضة ذلك، والتمرُّن فيه، إن لم يحوجه الدهر؛ وإلّا: فليتعب ذهنه، ويشغل باله بالفكرة فيه، خوفًا أن يُضطَرَّ إليه، وإنَّ الدعة غير دائمة. فإن احتاج إلى نفسه، وَجَدَها؛ وإن استغنى عنها، عرف فَضْلَ ما هو فيه، وكانت لذَّتُه به أشدَّ تمكنًا: فإنّه * [ق ٤ ب] لا يعرف قدْرَ الخير مَنْ لا يعرف الشرّ. وإعمال الفكرة فى هذه المَعانِى كالتجرُّب بها: فإنَّ الاهتمام بما لم يكن بلاءً فى النفس كائنٌ، وذلك البلاءُ مؤدِّبٌ، واعِظٌ، نافِعٌ، مضمحلٌ، خيرٌ من بلاءٍ موجع حال.

وقيل: ليس العلم بكثرة الرواية؛ إنّما هو نورٌ يضَعه الله فى القلوب. ولا عذر للإنسان فى أن يجهل علمًا يليق به، لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1]. ومن حُسْنِ إسلام المَرْءِ تَرْكه مالا يعتيه. وليس كل ماحضٌ عليه ونهى عنه على العموم؛ بل لذلك كلّه حُكْمٌ يحسنه العاقل؛ والجاهل لا يحسنه، وإن جهد جَهْدَه.

٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كُنّا - مَعْشَرَ أهلِ بيتِ المملكة - نَرى من آكدِ ما نتأدّب به إعْمالَ السياسة فى طلب الرياسَة، والسَّعْىَ لها بكلِّ الوجوه، وإحضارَ الأذهان، ما لَو أنَّ المُفْرِطَ فى بعض ذلك مِنا يكون أفْقَهَ الناس فى سائرها من العلوم، لكان عندنا ناقِصًا، لا يصلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافُسُ على ذلك.

وقَتَلْناها نَحْنُ عِلْمًا لرياضة أنفسنا لها، وما أَجْرانا [2] عليه آباؤُنا، وبصَّرونا فيه من أوّل نشأتنا.

وتلك صناعةٌ وجب تَعَلُّمُها لضرورة الحال، كسائر الصنائع التى منها معايش الناس، ولابدَّ لهم من إتيانها. ولَعَمْرِى إنَّ الوالى أكثر عِلْمًا وأحسن عَقْلًا: فإنَّ جميع عقول الناس تعرض لدَيْه، ويجرِّب فى موضعه مالا يجرِّب غيرُه فى تقلبه فى البلاد، وإليه تهدى الأخبار، ويتخاصم الناس، وعنده يقع الطلب، وترفع الحاجات، وتقع العِنايات؛ فيرَى ويسمع كلَّ يوم جديدًا لم يَرَهُ أمْسِ. وقال عمر بن العزيز - رضى الله عنه - : «لَسْتُ كخَبٍ، ولا الخَبُّ يخدعنى!» وقيل: «فلانٌ لا يعرف الشرّ». قال: «ذلك أَجْدَرُ أن يَقَعَ فيه!» .

ولمّا * [ق ٥ أ] كان المُظَفَّر جَدُّنا - رضى الله عنه - قد أُوتِىَ من الدهاءِ والتمييز لأحوال الزمان مالا خفاءَ به، وأنّه من آكد ما يَجِب له النظر فيه ترشيحُ أحَدِ بَنِيه للولاية بَعْدَه، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلّا بتمرينه وإعماله فى جميع خِدْمته، كَىْ يتدرَّب ولا يخفى عليه من أمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه، كُنْتُ ممّن وفَّقه الله لبرِّه والانصياع لوصيَّته. فأمر بإخراجى من المَكْتَب إلى التصرُّف بين يديه، وقال لى - نضرَّ الله وجهه -: «مَعَك من الكتابة وتلاوة

---

(١) سورة النحل الآية ٤٣ وسورة الأنبياء الآية ٧.

(٢) أصل: «أجرونا».

القرآن ما يكفيك! وهذا أولَى ما تتعلَّم! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مِنِّي وما ينقضى فى دولتي أيَّامَ هذه الفِتَن؛ فإنَّ الزمان أَشَـرُّ، والأَيَّامُ أَقْصَرُ من أن تُدْرِك تَعْلَم كلَّ شـيءٍ يعنى به الملوك لأبنائهم! » .

فامتثلتُ حدَّه، وأخذتُ نفسى أوَّلاً بالتواضُع له واختصارِ كلِّ شيءٍ يَقَع منه فى نفسه أنِّى أَشْرَهُ به إلي تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة؛ بل كنتُ أتأبَّى له عن ذلك. ولا أحْكُم بين اثنَيْن إلَّا عن مشـورته ومشـاركة أهل السـنِّ والعَمَل من وزرائه، وأنْزِل نفسى لهم بمنزلة الابْن، حتى وقع ذلك من أنفسهم مَوْقعاً ارتضونى به للخلافة من بَعْده. واتفَّق فى ذلك رأيُهم مع رأى الجدّ – رحمه الله.

ولم يكن منها نهارٌ إلّا وأستفيدُ فيه فائدةً من تَجْربة وحُنْكة.

ومـا كنتُ أجهلُه من الأشـياء، أَجِدُ له أعوانًا من الـوزراءِ، يعلموننى بالصواب فيه لقلَّة خِلافي عليهم وبِرِّى بهم.

كـل ذلك [من] الأسباب التى أذن الله من أجْلها ولايتى من بعده.

وقـد كان مـن أهلِ بيت المملكة مَنْ يصلح لها قَبْلى، ومعى من أَخٍ كبير وعَمٍّ وقرابةٍ أتَوَقَّعُ اسـتهدافَهم إليَّ وتَغَلُّبَهم عليَّ، ما لو أنْفَقْتُ مِلْءَ الأرض على كفايَة شَـرِّه، ما اسـتطعتُ له. فكفانـى الله تعالـى ما كنـتُ *[ق ٥ ب] أتوقَّع، وأرانى الخيرة فـي عاقبة كلِّ أمْرٍ كنتُ فيه أكرهُه. فنحنُ جُدَراءُ بتعداد نِعَم الله والإنصاف فى شُـكْره، كما حضَّ الله عليه فى قوله لنبيه– عليه السلام – ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١).

وقد كان أبونا سَـيْفُ الدولة – رحمه الله – مُرَشَّـحًا للمملكة، كثيرًا حبُّ أبيه له، وجَمْعُه الأمـوال مـن أجْلـه، وتدريبُـه عليه بكلِّ وَجْـهٍ. وكان – رضـى الله عنه – مـن العقل والكرم وحُسْـن الخُلُق والحِلْم ما شُـهِرَ به فى البلاد، واجتمع عليه محبَّة العباد. ولم يكن للمُظَفَّر جدِّنا غيرُه؛ فتوفِّى – رحمه الله – ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا. وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا إن شاءَ الله.

٦ - صعوبة الإنصاف التأريخى

وأوَّلُ ما ينبغى تقديمهُ ذِكْرُ دُخولنا الأَنْدَلُس، وكيفيَّة ولايتنا إيَّاها، إلى هَلُمَّ جَرًّا.

فإنَّه، متى أتَيْنا على خبر يطيب ذِكْرُه فى هذا التأليف، للمُعْتِرض أن يقول: «هذا أحْسَنُ لـو كان على أصْلٍ يُحْمَد، وعن ولايةٍ تُرتَضَـى! » فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف، على أنَّ الثناءَ الحسن لا يقع على الدولة إلَّا فى مُدَّتها وأيَّام سعادتها، ولو كانت ظالمةً؛ فلا يقع فيهـا الـذمُّ إلَّا بعد تَوَلِّيها، ولو كانت عادلةً. والناسُ مع من سـبق إلَّا مَنْ نظر بعين العدل، لا بعين الهوى؛ وقليلٌ ما هُمْ!

---

(١) سورة الضحى الآية ١١.

ولترَى أن لا شيءَ فى العالم يسعد وينحس إلّا وكان أحد الأمرَيْن لا يشوبه غيرُه. ولا يتعلّق بالسعادة إلّا كلُّ مستحسن من غير تكدير، كما أنّه لا تشوب المنحسة مافيه أدنى سرور. وليس مع الإقبال إدبارٌ إلا تمام المُدَّة.

ولا يتّفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمّه: فإنَّ رِضَى العامَّة أمْرٌ لا يُدْرَك، ولابدَّ للوالى أن يقضى عند حُكْمه لأحد الخصمَيْن على الآخر ضرورةً، فالمَقْضِيُّ عليه انقلب ساخطًا، والمَقْضِيُّ له انقلب راضيًا، وكلاهُمَا يتكلّم على شهوة نفسه. فكيف يتّفق إجماع العامَّة على خير واحدٍ * [ق ٦ أ] أو مدحه؟ وإن الله تعالى كان قادرًا على أن يُسوِّى بين [أمور خَلْقه، وجديرًا، وإن] كُيِّفَتْ، أن يرفع بَعْضَهم فوق بَعْض دَرَجاتٍ.

٧ - المُصادفة وأثَرُها فى التأريخ
مَثَلُ المنصور

وإذا اعتبرتَ أحوال هذا العالم على شيءٍ من أمر الدنيا، فإنما تجدُه كائنًا بأرقّ سَبَب: فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُمَخْرَق. وإذا بَعْثَرْتَ على ما هو فيه أَعَن استحقاقٍ تصيَّر إليه، لم تختبرْ من فعاله ومقاله شيئًا يشذ عن العالم، ولا يشِف على رأى من تَزْدَريه عَيْنُك، ولأنَّ الجهلَ فى العامّة أغْلب، والباطلَ إلى عقولها أسرَع: استعظَمتْ ما هو عند اللبيب حقير، وتكلّمَتْ على ما ظهر إليها، ولم تَقِسْ عليه بعقولها؛ ولله ما بَطَن، وللناس ما ظَهَرَ. ولهذا تَرَى صاحب الناموس أرْفَعَ ذِكْرًا وأطْيَبَ ثناءً، وإن كان يُرائى.

وقد كان المنصورُ بن أبى عامر، على دقة شأنه قَبْلُ، ولأنّه لم يكن من أهل بيت المملكة، فيستحقّها عن الآباء، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا؛ قد حصَّل على عظائم بدهائه ومخْرَقته على العامَّة، مع ماهيَّأت السعادةُ له (وكان أقوى الأسباب فى سلطانه). وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنّه مَنْ كان طالِعُه من البروج الحوت والقَوْس كان أعظم الأسباب فى سلطانه أو عقاره.

ولولا قيامُه بدعوة الخليفة، وإظهارُه الانخضاعَ له [فى جميع] ما يأتى ويَذَر إلى طاعته وإقامة أوده؛ وتوليته الحجابة والوزارة، وإخماله لأهل الدولة الحَكَمِيَّة [(١)]، وتقصِّيهم بالقتل، متأوِّلاً فى ذلك أنَّ دولتَه تصفو[(٢)] به ويقوى سلطانُه، وأنَّ فى بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفِتَن وهلاك المسلمين، حتى اتّسق له ما أمَّل، وبلغ من ذلك كلّه الغاية القصوى - ولو أنَّ أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعليق بسَبَب أو إظهار طاعة، [لكان قُتِلَ] من ساعته، ولو كان من أهل بيت الخلافة - إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده، فسار المنصور] * [ق ٦ ب] بأحْسَن سيرة وأحْمَد طريقة؛ وكانت له فى بلاد العدوّ فتكات، نال الإسلامُ فى أيّامه عِزًّا ما كان بالأنْدَلس [بِثْله]، وأذلَّ ما كان النصارَى عليه.

---

(١) فى الأصل: «الحاكمية».

(٢) أصل: «أن به تصفى دولته».